أدب النكبة .. لا أدب العودة !

بقلم عبد الكريم غلاب

قرأت القصيدة التي كتبها نزار قباني عن القدس ، وقرأت كثيرا غيرها من الادب الذي قيل قبل النكسة وبعد النكسة ، أو بعد الهزيمتين بأصرح تعبير . وما من شك ان كثيرا من هذا الادب مؤثر مسّ مني مكمن شعوري وهز احساسي بالهزيمة ، وما من شك في انه نفذ الى اعماق مشاعر كثير من العرب وأرضى انفعال البكاء عندهم ، فكان عينهم التي دمعت وشهيقهم الذي تصعد . ونكأ الجرح الدامي في نفوس كثير من ذوي المشاعر الرهيفه من متذوقي الادب في الوطن العربي . ولكنه مهما تكن بلاغته ومهما يكن تأثيره فهو بكاء ... وقد اعتدنا نحن العرب أن نبكي على الموتى ، وأن نبكي على الدمن والاطلال ، وان نبكي عند فراق الاحبة حتى صارت الدموع من مستلزمات العين العربية ، وقد تكون شعوب غيرنا نسيت شيئا اسمه الدموع والبكاء الا في لغة الاطفال من الذين تنفجر عواطف اليأس السلبية عندهم دموعا وعويلا ... ورغم العادة التي استحكمت فينا كبارا ـ وقد انحسرت عند غيرنا لدى الصغار ـ فان عويلنا اليائس لم يعد لنا ميتا من رمسه ، ولا أحال الدمن والاطلال ديارا وقصورا ، ولا غير من فراق الاحبة لقاء وعناقا ، وانما هي العواطف البدائية والنظرة الرومانطيقية الى الحياة تجعل منها في رؤيانا مأساة وملهاة فنضحك حتى الدموع ، ونأسى حتى الدموع في كلتا الحالتين : المأساة والملهاة .

ومن المؤلم المضحك معا أن ننظر الى المأساة أو الملهاة بمنظار واحد فتفقد الاشياء لونها الحقيقي لتصطبغ بلون المنظار الذي يعطيها مقدارا محددا من القتامة أو النصوع . وينعكس هذا التحديد النظري في نفوسنا فنحس بلون المأساة او الملهاة من خلال المنظار لا من الاثر الذي تخلفه في نفوسنا ، وعند ذلك تستوي نكبة الاندلس و « نكبة » فراق حبيب ، كلاهما لا يتطلب غير قصيدة عصماء نبكي فيها مراتع الصبا وملاعب الاحبة ، وتستوي لدينا نكبة القدس و « نكبة » موت صديق ، كلاهما يثير الشجن ويدعو الى البكاء .

وأعتقد ان هذا المظهر انما هو نموذج من التخلف الفكري الذي يحجب الرؤيا الحقيقية للاشياء ليجعل منها رؤيا مزيفة تستمد طبيعتها من المنظار الذي يضعه التخلف على عيوننا وأفكارنا . ثم هو نموذج من احساس الاطفال بالهزيمة عندما يتغلب عليهم من هو أكبر أو أقدر أو أشد حيلة فلا يجدون ملجأ الا الى البكاء : ولكنهم يبكون فيذهب بكاؤهم أدراج الرياح ، ونكتب بكاءنا قصيدة أو قصة أو مقالة ونحن نعتقد اننا نخلد ببكائنا المأساة .

ذلك مصدر أدب النكبة .

وأعتقد انه أدب عفا عليه الزمن وتجاوزته الاحداث وما أعتقد انه سيزيد على أن يثير فينا الجيد منه شعورا بجمال اللفظ ورقة الاداء وسلامة المبنى . أما الاجيال القادمة فما أعتقد ان وقتها سيتسع لقراءة بكاء على أطلال وعويل على دمن . فهو اذن أدب آني ـ على فرض انه أدب ـ لن يكون له حتى استدرار الدموع من مآقي الاطفال .

المأساة اذن في حاجة الى أدب جديد يتخطى العاطفة المتمرغة في المشاعر السلبية الى الفكر المتوثب للعمل من أجل استرداد الارض المغتصبة .

نحن أمام مأساة عميقة هي مأساة شعب وأرض ، أمام طغيان زحف مسلح بكل وسائل الزحف . وعملنا لصد الزحف ليس عملا آنيا نستدر له الرحمة ونثير من أجله الدموع ، فالحرقة التي تثير الدموع في المآقي ستذروها الرياح بتوالي الاحداث فلا تعود العين تفيض دمعا لان معينها سينضب وستبقى المأساة بدون دموع ، بدون عيون تبكيها ، وسنقول آنذاك : ان النكبة لم تنتج أدبا .

بين يدي الان كتاب صغير عن الادب الصهيوني كتبه الاستاذ غسان كنفاني . وقد وفق المؤلف في تقديم هذه الدراسة القصيرة (١٦٠ صفحة) وفي عرض تطور الدعوة الصهيونية في أدب اليهود . وتبحث عن البكاء فلا تجد أدب البكاء فيما بقي وخلد من أدبهم . وحتى المآسي الانسانية التي خلدها الفلكلور اليهودي وتاريخ اليهود ، المآسي التي يستمطرون بها عادة الرحمة ، دخلت أدبهم من الباب الفكري لا من الباب العاطفي .

فقد كان الادب اليهودي موجها الى خلق الفكرة الصهيونية وبعثها . ويظهر أن الفكر الادبي سبق الفكر السياسي في الموضوع . ودون أن نغرق في التاريخ سنجد ان الادباء اليهود منذ بداية القرن التاسع عشر بدأوا يظهرون شخصية اليهودي في الادب على غير ما تعارفت عليه الآداب العالمية في تصويرها مجموعة عقد تظهر في النقمة من الانسان باعتباره عدو اليهودي . وبدأت شخصية اليهودي تشكل نموذجا جديدا تتمثل فيه المشكلة : مشكلة الوجود ومشكلة القومية . ومن الفكرة القومية انبثقت الفكرة العنصرية التي هي أساس

الصهيونية . بدأت شخصية اليهودي تتملص من طابع « شايلوك » وطابع « فاجين » آسر « أوليفر تويست » لتأخذ طابعا جديدا هو طابع الرجل الطيب ، ثم طابع العنصري العنيف ، ثم طابع العنصري الذي يرفض الاندماج في المجتمعات باحثا له عن مجتمع قومي صهيوني ، ثم طابع البطل الذي يسير وراء الانفعال القومي ليدفع بالفكرة الصهيونية الى الامام وليعبىء الايحاء القوي بأن فلسطين هي الهدف ، كما برز ذلك من رواية الكاتبة اليهودية الانكليزية جورج اليوت « دانييل ديروندا » .

والخلاصة ان الادب الصهيوني استهدف ـ منذ أوائل القرن الماضي حتى الهزيمة الثانية ـ الاهداف الآتية :

ـ التفوق اليهودي المطلق والبطل المعصوم .
ـ الموقف من العرب خصوصا والشعوب بوجه عام.
ـ الشخصية اليهودية وعلاقاتها باسرائيل .
ـ المبررات الصهيونية لغزو فلسطين ، بما في ذلك التركيز على الاضطهاد الذي تعرض له اليهود بوجه عام ، وعلى المذابح الهتلرية خصوصا .

الادب هو الذي خلق فكرة الصهيونية وهو الذي عبأ رجال المال والاعمال والحكم والاقتصاد اليهودي ليكونوا في خدمة الصهيونية . وما أشك في انهم استخدموا العاطفة والدين في الايحاء ولكنهم استغلوا كل سيئات اليهود التاريخية ليجعلوا من أبطال السيئات أبطالا للحسنات وليجعلوا من اليهودي التائه مثالا لليهودي الصابر المناضل في سبيل الارض القديمة الجديدة .

انما أقدم مثالا من الادب الصهيوني لان صراعنا مع الصهيونية هو موضوع المأساة التي أخذ يعالجها أدبنا عن طريق الندب والبكاء . ولكن الآداب العالمية التي نشأت في عهد الثورات كلها آداب ملتزمة فكريا ، تثير الفكرة القومية وتعالجها عن طريق بعث الشخصيات المناضلة وتعبئة القوى المناضلة واخراج الفكر المناضل من مرحلة الاستسلام الى مرحلة النضال .

واعتقد ان المأساة العربية الان ليست في حاجة الى البكاء والعويل بمقدار ما هي في حاجة الى تعبئة الطاقة العربية لتصبح المأساة قضية كل عربي قوميا وفكريا وانسانيا ، ثم لتصبح هدف كل نضال عربي .
وذلك هو طريق العودة الذي لن يعبده الا أدب مناضل يتخطى الآنية الى المستقبل ويتخلص من أسر الدموع الى عنف الدم ووضوح طريق التحرر .

الرباط — عبد الكريم غلاب

مذكرات مالكولم X

زعيم الزنوج المسلمين في اميركا

في نيسان ١٩٦٥ ، اغتيل مالكولم X زعيم الزنوج المسلمين في اميركا . وقد كان وسيبقى واحدا من اشجع زعماء الحركة الزنجية في اميركا واكثرهم اصالة وابعدهم شهرة . وقبل ان يقتل بعدة اشهر (وكان يتوقع ذلك) املى على الصحفي «الكس هالاي» سيرته الذاتية التي هي اعجب سيرة لزعيم !

ذلك ان مالكولم X لا يخفي في سيرته شيئا من اسرار حياته ، بل يتحدث بكل صدق عن شبابه في الكوخ الذي كان يعيش فيه في حي « هارلم » حيث كان يتعاطى المخدرات والخمر ويمارس السرقة والسلب ويعيش عيشة الانحلال . وفي السجن الذي قادته اليه اعماله اللصوصية ، اكتشف فجاة السقوط الذي يعيش فيه ويعيش فيه كذلك كل افراد شعبه الزنوج . وهناك اعتنق الاسلام وانضم الى « امة الاسلام » ليكرس حياته كلها فيما بعد لمقاومة «الشيطان الابيض» المسؤول عن سقوط الزنوج في اميركا .

ويتحدث مالكولم X في مذكراته الرائعة عن حياة السود ومشاكلهم والتمييز العنصري الذي يمارسه عليهم البيض من الاميركيين ، وعن تمردهم وثورتهم التي نشاهد اليوم بعض مظاهرها في عدد من مدن اميركا الكبرى ، ويحلل في نفاذ وعمق الظروف السياسية والنفسية التي يعيش فيها الزنوج الاميركيون ، وعن ايمانه بالاسلام كدين يحارب التمييز ويدعو الى الاخوة الحقيقية بين الشعوب والامم .

وقد وصف روبرت كندي هذا الزعيم بانه الوحيد بين زعماء الزنوج الاميركيين الذي يملك « مغنطيسية » عجيبة !

مذكرات رائعة مؤثرة عن حياة مضطربة عجيبة لرجل عبقري يعتبر شاهدا على فترة خطيرة من تاريخ الزنوج الاميركيين الذين يكافحون من اجل تحريرهم، ويقفون بصلابة في وجه سياسة اميركا المخادعة .

صدر حديثا ـ الثمن ٥٥٠ ق.ل